المعرفة الإنسانية

في نظر البحث الحديث

عن مجلة « المغرب » الشهرية الصادرة بالرباط

تحدث كلمة « المعرفة » دويا ونبرة خاصة في أذن الذين اتصلوا اتصالا قويا بالحياة الصوفية وروحانياتها، فالمعرفة في كلام الصوفيين كلمة ذات سعة وعمق لا يمكن أن يحد بمقياس علمي ثابت وإنمايتصل بأعماق ما في القلب الإنساني من إحساس بالحياة المثلى، ولن أحاول أن أتحدث إليكم الليلة عن المعرفة في هذا الجو الروحي السامي، إذ أعرف أني مهما بذلت من مجهود في إيضاح ما ترمي إليه هذه اللفظة ذات السبعة حروف من رموز ومدلولات خانتني شاعريتي ووجدت نفسي بعد أن يجول بى القلم ما يجول في الحد الذي ابتدأت منه ذلك لأن المعرفة لدى الصوفيين قبل أن يحاول المرء أن يصورها في ذهنه من طريق التعاريف والتحديدات المختلفة لا بد أن يكون ذا ذوق سليم وذا بصيرة لا تكتفي بما حواليها بل تخترق الحجب، فإذا بالإنسان أمام الجمال المطلق وأمام حالة خاصة لا يدركها هؤلاء الأفراد الذين لم يتصلوا بالتصوف إلا من طريق الدراسات الجافة، فلن أحاول إذن أن ألج بنفسي وبكم في هذا الميدان الذي لا باب للخروج منه، بل إنه لميدان مستدير نسير فيه من اليمين إلى الشمال، فلا تلبث أن تكون في اليمين بعد قليل كأنما هى حياة لا أول لها ولا أخير؛ ومتى كان العالم يزخر ويموج بهذه الأنوار التي تضيء النفس وتميت ما فيها من إحساسات شريرة أو خيرة؟ ولكن إذا خشينا أن نتحدث عن المعرفة في عالم التصوف وعالم الروح فلن نخشاها في عالم ثان له مقاييس ثابتة واصطلاحات معروفة يستطيع كل شخص أن يمتحن استعداده فيه فلا يفشل وفي عالم لا

يتعمق في الحياة إلا بمقدار ما هو مشاهد ملموس ولا يغور إلا والطريقة مضاءة كأنما لا غور.

هذا العالم لا بد أنكم عرفتم اسمه من أول وهلة، فليس هناك شيء حددت جوانبه وقصت أطرافه مثل العلم، وعلم مدنية اليوم بصورة خاصة، حيث أصبح واضحا لا يتاح للمرء أن يتيه فيه ولو لحظة.

فلنحاول أن نصور في أذهاننا صورة عن المعرفة الإنسانية كما تتراءى للبحث الحديث الذي هو أساس المدنية الغربية الحاضرة فلن نصادف في طريقنا صعوبة في الموضوع إلا صعوبة الدرس، إذن لنساير العلم لحظة في أن يحدد لنا المعرفة ويميز أقسامها كأنما هو يحدد ويقسم مادة من هذه المواد التي نلمسها بأيدينا، وفي محاولة العلم هذه متعة للفكر وسبر لمجهوداته في الكشف عن خبايا الحياة من طريق التجربة والتعليل المادي.

والبحث الحديث لا ينظر إلى المعرفة إلا باعتبارها نتاج الإنسانية في مختلف أطوارها التي درجت عليها في الماضي وتدرج عليها اليوم؛ هذا النتاج صورة يتناولها الباحث ويمعن النظر فيها ويقلبها من وجوه ثم يبدي فكره، ومن خلال الأفكار التي أبداها جماعة المفكرين استقر الرأى العلمي أن ننظر للمعرفة هذه النظرة ونصورها زبدة لما وصل إليه الإنسان سواء من طريق الشعور والإحساس أو من الاستنتاج العقلي أو المنطقي أو من طريق التجربة والاختبار.

ومن هنا جزئت المعرفة ثلاثة أجزاء واستطعنا أن ندخل مختلف الصور التي تعرض للمرء في سائر أطواره الظاهرة في هذا التعريف وهذا التقسيم ونمزج كل ما يقدمه الفكر الإنساني من إنتاج في دائرة نسميها « معرفة بشرية » .

ولم يستطع العلم أن يضع حدودا فاصلة بين أجزاء المعرفة لدرجة يصبح فيها اللبس بين تلك الأجزاء أشبه شيء بالمستحيل، وإنما استطاع أن يميز الجزء عن الآخر تمييزا تتصوره كما تتصور كل شيء في العالم النظري للعلم.

وأول جزء من أجزاء المعرفة تلك القوة المبدعة التي اصطلحنا أن نسميها بالفن، قوة يدعها الله في بعض الأفراد، فإذا بهم يضعون للإنسان النماذج العليا لمختلف صور الحياة، فيبدعون في الوضع ويسامون في الابتكار، فهم رسل، رسالتهم الجمال يتلمسونه في كل محاولاتهم ويسعون إليه في كل خطواتهم وتختلف وسائل تأديتهم لهذه الرسالة، فمنهم من يؤدي رسالته عن طريق الشعر حيث يكون من أبياته صورة حية تراها تسير وتراها تضطرم بما تضطرم به صور الحياة الإنسانية؛ ومن الفنانين من يؤدي رسالته عن طريق الرسم، فإذا بك أمام صورة تراها فترى فيها سرا من أسرار الحياة ولا تستطيع أن تتفهم هذا السر أكثر من أن تلفظ كلمة في نفسك هى « الجمال » ؛ ومنهم من يتخذ من الصخرة الصماء وسيلة لإبراز فكرة في نفسه، فإذا بتمثاله يكاد يتكلم ويكاد يسير، وهكذا بقية الفنانين فهم يعبرون عن مكنون نفوسهم ويرسمون تلك الصورة التي تتراءى لهم في ساعة إلهامهم.

وإذا انتقلنا إلى الجزء الثاني من أجزاء المعرفة الإنسانية أو أجزاء النتاج الإنساني في نظر البحث الجديد بالأحرى فعلينا لنهتدى إليه أن نفكر في هذه القوة التي تحضنا أن نقارن وأن نستنتج وأن نتلمس العلل النظرية لما نشاهد في يومياتنا من حوادث مختلفة وصور متباينة ربما كانت مقدماتها واحدة؛ فهذا الباحث في فلسفة التاريخ وذلك المحلل لشخصية عظيم، وذلك المفكر الاجتماعي العميق التفكير كلهم ندخلهم ويدخلهم البحث الحديث في صف الأدباء ويعتبرهم أفرادا ليسوا ذوي حظ كبير من سعة الفكر وسعة التأمل والاستنتاج ينزوون في زاوية، فإذا بزاويتهم عالم يموج فيه فكرهم وتأملهم فيهتدي إلى آراء يكن لها في الغالب قيمة في الحياة العملية كما لها قيمة كبرى في عالم النظريات.

وإذا تلمسنا الجزء الثالث وهو الأخير لم يصعب علينا الاهتداء إليه ولا تغالطنا التعريفات في طريقنا إليه، فهو العلم التجريبي الذي لا يعتمد مطلقا على الاحتمالات بل يتجرد في كل شيء ليشاهد ويجرب ويحلل العناصر تحليلا تاما ثم يرد كل عنصر منها إلى أصله،

فإذا بك في ميدان البحث العلمي الصحيح أمام عناصر أولية لا يشوبها مزج ولا اختلاط، لكن العالم يقف أمام تلك العناصر بعد عملياته العجيبة حائرا مندهشا يسائل نفسه ما مصدر هذه العناصر البسيطة هل أستطيع أن أهتدى إلى تعليل لوجودها أو تعليل لما فيها من قوة تنفعل وتتجاذب فلا يجد أمامه إلا باب الاحتمالات فيلجه مرغما.

هذه أجزاء المعرفة الإنسانية في نظر البحث الحديث، فأية صلة تربط هذه الأجزاء وأى إحساس يشعر به الفنان نحو أخيه العالم أو الأديب نحو أخيه الفنان؟ فمن الغريب أن تتراءى لنا مخاصمة تلوح في الجو بين الآونة والأخرى بين رسل المعرفة فيتفاضلون كأنما هم أطفال في ساحة يلعبون، ولكن هى الحياة سرها النزاع وعوامل تقدمها حب الذات، وإلا فأية منافرة نستطيع أن نتصورها بين أجزاء المعرفة حتى أنه يخيل للعالم في بعض الأحيان أن يضمر عداوة لأخيه الفنان أو الأديب، ويخيل لهذين عداوة بينهما، فمن الغريب أن نسمع في عصرنا وهو عصر المعرفة والسعة الفكرية من يتصور أن العلم يقضي على الفن، والأدب يتلاشى أمام البحث التجريبي إلى غير ذلك من الآراء السطحية التي تصور المرء كأنما للحياة الإنسانية ناحية واحدة ليس من المستطاع أن تخرج عنها يراها العالم في معمله والأديب في فكره والفنان في خياله، أما الذين أوتوا نصيبا من حرية النفس ونستطيع أن نسمى هذا النصيب بالشمول الفكري فهم يرون أن كل جزء من أجزاء المعرفة متمم للآخر لا يمكن للحياة أن تسير دونه، بل نستطيع أن نرى في العالم فنانا خياليا وفي الأديب عالما تجريبيا دون أن يندمج الأول في الثاني ولا الثاني في الأول. فالعالم أيضا قبل أن ينكب على معمله وتجاربه تتراءى صورة أمام نظره فيعمل على إبرازها للوجود فتشغل آلات وتميز عناصر ويرى بمجاهير، بينما الفنان يستعمل في إبراز صورته الخيالية الريشة أو المنقاش أو آلة الطرب، وبينما العالم يستوحي عقله وتجاربه في تجميل صورته إذ الفنان يستوحي إلهامه وشاعريته والأديب يناجي فكره وجولاته، وكل يؤدي رسالته للحياة وهو مطمئن ثائر، مطمئن على نفسه، ثائر على المجتمع إذ يسعى في

كل محاولاته أن يقفز به خطوة إلى الأمام ويريه من صور الحياة التي لا علم له بها والتي لا يمكن أن يصل إلى إدراكها دون هؤلاء الأجزاء الثلاثة.

إذن لا نستطيع أن نفهم جيدا ما تعني به جماعة من الكتاب السطحيين من وجود شيء يسمى منافرة أو عداوة بين أجزاء المعرفة الثلاثة الا أن تكون هناك منافرة بين العالم الجيولوجي والطبيب حيث أن ما بين أيديهما من وسائل البحث مختلف ومتباين بينما غايتهما واحدة هى البحث عن أسرار الحياة الإنسانية، وما غاية الفنان أو الأديب إلا حصول الانسجام بين أجزاء تلك الأسرار وربطها بالإحساس البشري ووضعها في حيز الذوق المعنوي.

فالروائي مثلا شخص يجمع في نفسه وإنتاجه بين روعة الخيال الفني وجزالة الأسلوب الأدبي وآراء العلم المؤيدة بدعائم التجاريب والأبحاث العملية، بل إن الأديب والفنان عندما يبلغان قمة المجد والنبوغ كثيرا ما يكشفان حجبا عن النفس الإنسانية وعن أسرار المجتمع لا يستطيع العلم أن يدركها بطرقه إلا بعد أجيال، ولنا في شعرائنا وأدبائنا وشعراء وأدباء بقية الأمم خير مثال.

فالشاعر ليس بذلك الرجل التائه في بيداء الخيال كما تزعم طائفة من المشتغلين بالعلم التجريبي بل هو الرجل الذي يتصل حسه وشعوره بالوجود من طريق تلك العاطفة التي هى جزء من أجزاء النفس البشرية، فإذا بالشاعر يضع من طريق شعره النماذج التي ينبغي أن تكون مثلا حيا لما في النفس من نزعات متضاربة لم يتصل العلم بها اتصالا متينا ولم يحللها إلا تحليلا بسيطا وهكذا سائر الفنانين يعبرون عن هذا الجزء الغامض من نفس الإنسان بينما العلم لا يجرؤ أن يقدم لنا تحليلا نرضاه عن ذلك الجزء من نفسنا.

هكذا جزأ البحث الحديث ما يسمى بالمعرفة؛ أما لو أحببنا وحاولنا أن نأخذ كل جزء من تلك الأجزاء ونحصى ونرتب ما يتفرع عنه لاضطررنا ولا ريب إلى أحاديث في سهرات أخرى، فالمعرفة اليوم تنوعت أكثر من ذي قبل وهى في نمو مدهش متواصل، فلا تمر

مناسبة دون أن يستولد البحث علما جديدا ويبنى له دعائم وأساليب التفكيربه، أما الأدب فقد اتسع ميدانه وشمل مباحث كانت تعد بالأمس القريب من صميم العلم ومباحث جديدة لم يعهدها آباؤنا الأولون، وأما الفن وأساسه الوحيد الخيال والإحساس فلم يتنوع ولم تزدد فروعه زيادة محسوسة وإن كان النابغون الفنانون خطوا به في عالم النضوج الصحيح وتأدية رسالته المثلى للبشرية وتعبيره عن الإحساس الإنساني خير تعبير.

على أننا لو فكرنا أن نضع تخطيطا لما يشتمل عليه كل فرع من تلك الفروع لكان مجهودنا عبثا بعد سنوات لأن الحياة الفكرية للإنسان في تطور مستمر ونمو متواصل، ولقد سعى الفلاسفة أن يحصروا العلوم ويصنفوها ويرتبوا مراتب الإنتاج الإنساني في العهد الماضي، وفي المكاتب اليوم مؤلفات لهذا الغرض ذاته لا ننظر إليها الآن إلا من ناحية تاريخية بحتة لنرى كيف تطور نظر الإنسان فيما ينتجه.

وكلمة ختامية آتي بها متسائلا: هل هذه الأجزاء الثلاثة للمعرفة تعبر عن كل ما تستطيع نفس الإنسان أن تغور فيه، وهل يكفي تلك الأجزاء من المعرفة أن تزيل كل ما يتراءى للإنسان من ضباب وانفعالات في هذه الحياة وأن تشبع ما في أعماق نفوسنا من نزعات متضاربة؟

إن مدنية هى مدنيتنا الحاضرة قامت في التاريخ الحديث على دعائم هذه الأجزاء دون غيرها وقد خطت بالإنسانية في سبيل مبتغاها المادي خطوات ننظر إليها اليوم متفائلين، فإذا ما أمعنا النظر في عناصر هذه المدنية بين مختلف الجماعات التي تتحمل أعباءها رأينا - ويا للأسف - القوة النفسية الروحية لتلك الجماعات تنحل تدريجيا وتموت في نفوسهم معنى الإيمان بالحياة في أسمى معانيه، وهذا الإيمان هو أول عنصر من عناصر السير بالجماعات في سبيل أنشودتها العالية مما بعث روح التشاؤم في كثير ممن يصلون بين التاريخ الإنساني في مختلف مراحله ويستخرجون منه عبرة للحاضر والمستقبل، فما للغرب من مدنية سيطر عليها الاتجاه المادي سيطرة تامة فأصبح الإنسان لا يتطلب السعادة

الروحية بمقدار ما يسعى لإشباع رغباته الجسمية مع اعترافنا أن تلك الأجزاء الثلاثة للمعرفة تخطو خطواتها في عالم الازدهار وتحرز النصر إثر النصر، ولكن المدنية الغربية تتراءى لكثير من الفلاسفة أن بناءها سينهار يوما قريبا، والجماهير في الغرب سئمت المادة وتتجه اليوم صوب الروحانية وتصبو إلى غذاء يقوي سيرها وخطواتها.

فهل نستطيع إذن أن نجيب على أسئلتنا الماضية بالإيجاب فلا نرى أن تلك الأجزاء الثلاثة كافية لإشباع ما في نفوسنا من غور ونزعة وتمرد.

سؤال وجواب ليس لهما من موضوع في كلمتنا هذه إلا أن يبعثا في المرء روح البحث وروح التساؤل عن مخبئات النفس الإنسانية التي لا أظن أن البحث الحديث اهتدى إلى حل ألغازها أكثر مما اهتدى الإنسان النير في أول خطوات الحياة ، ذلك أن المرء لم يشتغل كثيرا في تفهم نفسه بل ابتعد عن تلك المحاولات واهتم بالمادة يحللها ويؤلف منها ما يساعده على إشباع رغباته.